قواطع البرهان:

في إثبات وجود الله، وصدق أنبيائه، وإسعاد الشرع للإنسان

تأليف الشيخ محمد ولد الدناه الأجودي الشنقيطي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله المبدئ المعيد الذي خلق كل شيء بشهادة كل شيء من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة .

وصلى الله وسلم على النبي الصادق الأمين محمد بن عبد الله، وعلى الأنبياء من قبله أجمعين الذين صدقتهم سيرهم، وأفحمت خصومهم معجزاتهم الباهرة المختلفة، وشهدت بذلك كتبهم التي جاءوا بها من ربهم بأنهم مرسلون من عند لله.

ثم الصلاة والسلام على آل محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام وعلى أشياع الرسل وحواريهم المؤمنين الذين استمعوا لداعي الحق فعرفوه، وانقادوا له وسعدوا به.

أما بعد فإلى الراغبين في الحق والخير والصدق والسعادة المحكمين للبراهين اليقينية أقدم هذه الورقات التي بعنوان: " **قواطع البرهان: في إثبات وجود الله، وصدق أنبيائه، وإسعاد الشرع للإنسان**".

وجملة المباحث التي تتضمنها هذه الورقات تساق من خلال خمسة مباحث:

أولا: سبل اليقين التي لا يتطرق إليها الغلط.

ثانيا: الشبهات التي منعت الكفار من رؤية الحق.

ثالثا: من أدلة وجود الله جل جلاله.

رابعا: أدلة صدق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

خامسا: غاية الشرع هي إسعاد الإنسان.

المبحث الأول: سبل اليقين التي لا يتطرق إليها الشك

إن من علامات الحق أن يتوارد عليه العقل الصريح، والفطرة السليمة، والنقل الصحيح، والواقع الموضوعي. وهناك سبل إن حصل بواسطة إحداها اعتقاد كان يقينيا، مأمون الغلط، وهي:

أولا: الأَوَّليات

وهي كليات الأجناس والأنواع التي التقطت في الصِّبا من أشياء جزئية بطريق الحواس، ثم جردها العقل؛ فصارت كليات بديهية لا يحتاج العقل في حكمه بها إلى إعانة الحواس، ولا تكون أحكامه فيها إلا يقينية؛ وذلك كحكمه بأن الكل أكبر من الجزء، وبأن الأثر لا بد أن يكون صادرا عن مؤثر موجود حي أو جماد، وبأن الصنعة المحكمة المؤدية لغاية معينة لا بد أن تكون صادرة عن صانع حي مريد لصنعتها، قادر عليها، عالم بوسائلها، حكيم في تركيبه لها، وأن المخلوق لابد أن يدل على بعض صفات الخالق المتعلقة بالفعل، وأن الأثر يدل على اسم المؤثر، والاسم يدل على الصفة، والصفة تدل على الذات، فالمخلوق أثر يدل على اسم الخالق، والخالق يدل على صفة الخلق، وصفة الخلق تدل على ذات الخالق.

ثانيا: الحسيات

وهي التي يكون حكم العقل فيها بإعانة إحدى الحواس الظاهرة. وأحكام العقل بواسطة الحواس يقينية إن حكمت القوة المفكرة (العقل) فيها بعد الروية والتأمل في مدركاتها بالعرض، أو حكمت بواسطة مدركات الحواس بالذات؛ إذ لكل حاسة مدركات بالذات، ومدركات بالعرض، الحاسة السليمة لا تخطئ في مدركاتها الذاتية؛ كالضوء والظلام بالنسبة للبصر، وإنها يدخل عليها الخطأ في مدركاتها العرضية كالألوان، والأشكال، والأوضاع، والأبعاد، والحركات

بالنسبة للبصر. وذلك بسبب حكم العقل قبل التروي والتأمل، لا بسبب الحاسة ذاتها إلا أن تكون عليلة.

فالعصا المغمورة في الماء تبدو مكسورة، والخطوط المتوازية التي تفصل بينها خطوط تبدو غير متوازية، والأرقام البيضاء تبدو أكبر من السوداء مع تساويها؛ فإذا تروى العقل، وتأمل لم تخطئ الحاسة في نقلها.

ثالثا: الأحكام العادية اليقينية

وتحصل الأحكام العادية اليقينية بالطرق التالية:

١ التجريبيات:

وهي التي يكون حكم العقل فيها بتكرر المشاهدة مرة بعد مرة، تكرر تأمن النفس فيه من كون الأمر المشاهد اتفاقيا؛ وذلك لانضمام قياس خفي إلى الحكم، وهو أن الأمر المشاهد لو كان اتفاقيا لما كان مستمرا دائما.

ذلك أن استمراره ودوامه على سنن واحد يقتضي وجود سبب لذلك الاستمرار وإن لم تعلم حقيقته. وهذا السبب الخفي هو الفارق بين التجريبيات والاستقرائيات.

فحكم العقل بأن النار تحرق، والماء يروي، والسكين تقطع حكم عادي تجريبي.

٢ الاستقرائيات:

كحكم العقل بأن كل قار أسود، وأن كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ، وكل معدن يتمدد بالحرارة؛ فهو حكم عادي استقرائي. وأحكام العقل في باب الاستقراء التام يقينية، وأما الاستقراء الناقص فالحكم بموجبه ظني.

٣ الاستصحابيات:

فحكم العقل بإعانة استصحاب العادة يقيني إيجابيا كان كحكمه بأن المحيط الفلاني ما زال في مكانه، أو أن الدولة الفلانية ما زالت في مكانها، أو سلبيا كان كحكمه بأن الإنسان لا يستطيع الطيران في الهواء والمشي على البحار.

رابعا: الوجدانيات

فحكم العقل بإعانة الحاسة الباطنة المعروفة بالوجدان التي يدرك بها الفرح والحزن، والرضا والغضب، والرجاء والخوف، والجوع والعطش، والحب والكره، وغيرها. فحكم العقل بهذه الأمور لخاصة النفس يكون يقينيا؛ لأنه بإعانة حاسة الوجدان.

أما حكمه بها للغير فلا يكون يقينيا، بل إنه ظني؛ لأنه لا يكون بإعانة حاسة الوجدان، وإنما يكون بمشاهدة أمور دالة عليها كحكمه بأن زيدا يحب عمرا.

وقد يدعي كاذب وجدانا معينا اتكالا على أن الوجدان أمر باطني لا يطلع عليه غيره، فتفضحه شواهد الحال؛ كأن يدعي حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وهو مخالف لأمرهما؛ قال تعالي: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ {آل عمران : 31}.

خامسا: التواتريات

وهي التي يكون حكم العقل فيها بإعانة السمع المستند لكثرة المخبرين بأمر محسوس شاهدوه فجزموا به، وكثروا كثرة يستحيل معها عادة تواطؤهم على الكذب، فانضم إلى سماع إخبارهم قياس خفي، وهو هنا أن الخبر لو لم يكن حقا لما تواطأ عليه عدد يستحيل تواطؤهم عادة على الكذب.

والتواتر نوعان: لفظي في أمر موجود في الحال كمكة أو وجد في الزمن الماضي كمالك والشافعي.

والنوع الثاني معنوي: وهو نقل المخبرين لقضايا متعددة ومشتركة في معنى كلي يدل على خصلة معينة كالجود بالنسبة لحاتم الطائي؛ فقد نقل عنه المخبرون أنه أعطى عطاء كثيرا لأنواع عديدة من النقود والحيوان والمتاع في أوقات شتى، فدل ذلك على جوده إذ الجود معنى كلي غير محسوس، لكن كثرة الإعطاء محسوسة، وقد اتفقت عليها هذه الأخبار اتفاقا حصل اليقين بواسطته بثبوت خصلة الجود لحاتم.

سادسا: أخبار الآحاد إذا انضمت إليها القرائن

إن أحكام العقل بواسطة أخبار الآحاد إذا انضمت إليها القرائن تكون يقينية؛ كإخبار ثلاثة بإصابة شخص مهم بسكتة قلبية مفاجئة إذا انضم إلى ذلك بكاء أهله، وصوت سيارة الإسعاف وهي تتوجه إلى بيته.

المبحث الثاني: الشبهات التي منعت الكفار من رؤية الحق

حاول الكفار التستر وراء جملة من المبررات الواهية والشبهات المتهاوية، وقد تولى القرآن الكريم الرد عليها ودحضها وبيان سخفها وتناقضها، وفي ما يلي إيراد لتلك الشبهات لبيان تهاويها والرد علها:

أولا: شبهة أن الله لا يدرك بالحواس فهو غير موجود

فهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾{ البقرة: 118}.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ { الفرقان:21 }.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ { غافر: 36-37}.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ { البقرة: 55 } .

وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ { النساء: 157 }.

فأمراض الجهل والكبر والانحراف والظلم كما في الآيات هي التي جعلتهم ينكرون ما لم تدركه حواسهم، ويقفون في الإثبات عند مدركاتها.

الجواب عن هذه الشبهة:

- أن عدم الوجدان لا يقتضي عدم الوجود؛ إذ لو كان يقتضيه لكان الموجود من هذا العالم بالنسبة لكل إنسان هو مجاله الذي يتحرك فيه وتلامسه حواسه، وأما ما عدا ذلك من أرض وسماء وبحار وتاريخ وأمم، بل ومن آبائه وأمهاته لا وجود له. فمتى كان الجهل بالشيء حجة على عدم وجوده فمن من جهل غاية شيء أو سببه فهل يقول عاقل أن ذلك دليل على أنه لا غاية أو لا سبب له؟.

- أن المنكرين لوجود الله بحجة أنه لم تدركه حواسهم، أيقنوا وآمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم، وإنما رأوا آثارها فحكمت عقولهم بوجودها، وأيقنوا بها كالجاذبية والمغناطيسية، والعقل والروح؛ فكيف ينكرون وجود الله مع رؤيتهم لما لا يحصى من الآثار الدالة عليه؟!!.

ثانيا: شبهة أن هذا الكون أزلي وليس مخلوقا أي ليس حادثا

الجواب عن هذه الشبهة:

- أن الكون أشخاص وأمكنة وأزمنة ومحمولاتها من الأعراض المختلفة، وكل ذلك متناه ذو أول نشاهد ذلك حسا وعيانا؛ لأن تناهي الشخص ظاهر بيِّن بمساحته وبزمان وجوده وتناهي العرض المحمول ظاهر بيِّن بتناهي الشخص الحامل له. وتناهي الزمان معلوم باستئناف ما يأتي منه بعد الماضي، وفناء كل وقت بعد وجوده، واستئناف آخر يأتي بعده؛ إذ كل زمان فنهايته الآن، وهو حد الزمانين ينتهي عنده الماضي ويبتدئ منه المستقبل، وهكذا أبدا يفنى زمان ويبتدئ آخر.

وتناهي المكان معلوم بتناهي الزمان؛ لأن الزمان ما هو إلا دورة الأجرام المكانية التي لا بد أن تكون لها بداية ونهاية؛ لأن الشيء الدائر لا بد من وجود بداية ونهاية لدورته.

وكل جملة من جمل الزمان فهي مركبة من أزمنة متناهية ذات أوائل، وكل جملة من الأشخاص فهي مركبة من أجزاء متناهية بعددها وذات أوائل.

وكل مركب من أجزاء متناهية ذات أوائل، فليس هو شيئا غير أجزائه إذ الكل ليس هو شيئا غير أجزائه التي ينحل إليها، فإذا كانت أجزاؤه متناهية ذات أوائل فالكل بلا شك متناه ذو أوائل.

فالكون كله إنما هو أمكنته وأزمنته وأشخاصه ومحمولاتها أي أعراضها المتناهية ذات الأوائل وليس شيئا غير هذا. فالكون إذن متناه ذو أول، وليس أزليا فاحتاج بالضرورة إلى صانع أزلي أخرجه من العدم إلى الوجود.

- أن الكون كله إما جواهر كالأجرام والأجسام، وإما أعراض كالحركة والدوران والحرارة والمرض. والعرض لا يقوم بذاته، بل لا بد له من جوهر يقوم به فالذرة جوهر يقوم به عرض الحركة، والجرم جوهر يقوم به عرض الدوران. والجواهر لا تنفك عن الأعراض مطلقا، وحدوث الأعراض ظاهر بيِّن، وما دام الجوهر لا وجود له إلا بعرض يلازمه، فهو حادث بالضرورة. فالأجرام والأشخاص جواهر، والحركة والدوران وبالتالي الزمان والمرض أعراض حادثة لها بداية ونهاية، والجواهر بالضرورة كذلك. فالكون كله ليس شيئا غير الجواهر والأعراض، فهو إذن حادث له بداية ونهاية، ولا بد له بالضرورة من خالق أزلي.

يقول الغزالي: بناء على ملاحظة الحركة والسكون أن دورة من الفلك إما أن تكون شفعا أتمت عددا فرديا، أو وترا أتمت عددا زوجيا؛ فالعدد االسابق على كلا الحالين محدود، وكل محدود فهو حادث قطعا. ومن قال إن العالم قديم والحركة طارئة عليه يلزمه الإقرار بمرجح أوجد الحركة هو الله.

- أن قوانين الحرارة كما قرر ذلك علماء الفيزياء تشهد بأن العالم ليس أزليا وأن له بداية ونهاية.

يقول ليكونت دي الفيلسوف الفيزيائي في كتابه: مصير البشرية: "وقد أثبت الفيزيائي الكبير بولتز مان: أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس يوافق تطورا نحو حالات أكثر وأكثر احتمالا يتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة، وهكذا فإن الكون يميل نحو

التوازن حيث تزول جميع عدد التناظرات الموجود في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام.

ويقول إدوارد لوزكيل: وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه على حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيمياوية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله. وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قديما بنفسه، ولا بد له من مبدئ أو محرك أزلي أو خالق هو الإله.

ويقول (فولنك آلان) عالم البيلوجيا: إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته؟ هناك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده، وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية، وإما أن يكون له خالق.

فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا وإننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية.

وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق.

وليس هنا صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر.

ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تلفظ حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي درجة الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة.

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث.

ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود.

– أن قوانين الحركة في الكون تشهد بأن الكون ليس أزليا وأنه له بداية ونهاية

ذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزئيات كهربائية سالبة هي الإلكترون وموجبة هي البروتين وبعض الذرات فيها شحنة معتدلة تسمى النيترون الذي يشكل مع البروتين نواة الذرة بينما يشكل الإلكترون كواكبها السيارة التي تدور حول النواة بسرعة هائلة إذ لو لا هذا الدوران السريع لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون وفي هذه الحالة يصبح جرما كالكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة إذ الفراغ كبير جدا في عالم الذرة؛ فكل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزا صغيرا جدا من فراغ الذرة الواسع وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبيا.

والكون كله مؤلف من نفس الذرات بنفس الخصائص ودوران الإلكترون حول النواة نجده في كل جرم من أجرام الفضاء. فالإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائرية دائبة فلا بد

أن يكون لهذا الدوران بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته، وهذه البداية هي بداية وجود الذرات نفسها. وإذا ثبت أنه حادث فلا بد له بالضرورة من خالق أزلي.

- أن علم الكيمياء وعلم الفلك يشهدان بأن الكون ليس أزليا وأن له بداية ونهاية

يقول "جون كوشران" وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال والفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة؛ وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية[1]. ومعنى ذلك أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد.

ويقول "لونيج وليام": فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قدسية وإن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغيير[2].

ثالثا: شبهة من خلق الله الذي خلق الخلق كله؟

الجواب عن شبهة هذا السؤال:

- أن الله خالق وكونه خالقا يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق إذ الوجود لا يوجد فيه إلا الخالق أو المخلوق، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقا للكون، وخالق الكون لا يمكن أن يكون مخلوقا. ولو كان مخلوقا لانتفى عنه اسم الخالق، ولما استطاع أن يخلق؛ فالإنسان المخلوق مع كل ما أوتي من إمكانات وعلوم يستحيل عليه أن يخلق شيئا من العدم فكيف يسوغ تصور خالق هذا الكون مخلوقا.

- أنه إذا كان من صفات هذه الحوادث وطبائعها أنها لا توجد بذاتها بل لا بد لها من موجد هو الله. فمن صفات الله وكماله أنه أزلي لم يسبق له عدم، ولا يحتاج إلى غيره، وإذا كان العدم في الحوادث هو الأصل فلا بد لها من موجد أخرجها إلى الوجود فالوجود في الأزلي هو الأصل، فلا يحتاج لغيره.

[1] الله يتجلى في عصر العلم، ص 27.
[2] الله يتجلى في عصر العلم، ص 55.

- أن من يجيب هذا السؤال بأن خالق الكون خلقه خالق آخر لزم عن ذلك أن يكون الخالق الثاني خلقه ثالث، والثالث خلقه رابع، والرابع خلقه خامس، وهكذا..

وفي هذه الحالة إما أن نصل إلى ذات لا بداية لها ولا خالق؛ فهذه الذات التي لا بداية لها ولا خالق هي ذات الله جل جلاله.

وكل جواب في الوسط باطل ولا معنى له في النهاية، فهناك خالق ومخلوق، والخالق الأزلي لا يمكن أن يكون له خالق، والخالق الحادث مخلوق، وخالق الكون لا يمكن أن يكون مخلوقا، وإما أن يتسلسل الأمر بأن يكون الخالق الخامس خلقه سادس والسادس خلقه سابع، والسابع خلقه ثامن، والثامن خلقه تاسع والتاسع خلقه عاشر إلى ما لا نهاية.

وهذا يقتضي أن وجود الإله الأول الذي هو سبب جميع الوسائط وجود ذهني لا حقيقي، وهذا يقتضي الجزم بأن الكون بما فيه من مادة وأحياء غير موجود؛ إذ السبب الأول في إخراجه من العدم إلى الوجود عدم لا وجود له إلا في الذهن. ولا يشك عاقل في بطلان هذه الدعوى؛ لأنها جمع بين النقيضين: وجود الكون وعدمه.

مع أن تسلسل العلل والأسباب والحوادث أمر يستحيل بإجماع العقلاء؛ لأنه يؤدي إلى التسوية بين عدد كبير وعدد صغير، وذلك محال عقلا.

أمثلة للتوضيح

ومن الأمثلة الموضحة لذلك برهان التطبيق:

المثال الأول:

وهو أن نتصور أننا أمسكنا بسلسلة وجودية تبدأ من لحظة الزمان الحاضر وتتسلسل في الزمان الماضي دون نهاية، وأمسكنا بسلسلة أخرى مماثلة لها تماما ولكن من حلقة من حلقاتها وجدت قبل مليون سنة أو أكثر، ثم أخذنا نسير مع حلقات السلسلتين، هذه من لحظة الزمان الحضر، وتلك من حلقة قبل مليون سنة، وسرنا القهقرى في تطبيق متناظر متبعين ما كان في جانب الزمن الماضي؛ فإننا نلاحظ أننا مهما سرنا في عملية التطبيق نجد أن

السلستين متساويتان ما دام جانب الماضي غير متناه مع الواقع. مع أن الواقع البديهي هو أن أحدهما أطول من الآخر بما يعادل حلقات مليون سنة، وهذا تناقض ظاهر وهو محال وما لزم عنه المحال فهو محال.

المثال الثاني:

من قال سأعطي فلانا في اليوم الفلاني درهما، لكن لا أعطيه ذلك الدرهم حتى أعطيه درهما قبله، ولا أعطيه درهما قبله حتى أعطيه درهما قبله، وهكذا إلى غير أول، فمن المعلوم أن إعطاء الدرهم الموعود به في اليوم الفلاني محال لتوقفه على محال؛ فلا وجود لذلك الدرهم إلا في الذهن.

- أن صفات الخالق كلها مطلقة بعكس صفات المخلوق فكلها نسبية، فعلم الخالق مطلق وقدرته مطلقة وحياته مطلقة ووجوده مطلق لا أول له، وبقاؤه مطلق....، وكماله مطلق، وغناه مطلق، وهكذا بقية صفاته، بعكس صفات المخلوق؛ فقياسه عليه غلط فاحش.

- أن صاحب هذا السؤال متوهم، وجوابه في إزالة سبب التوهم؛ وسبب توهمه أنه رأى كل شيء موجود محتاجا إلى خالق، فتوهم أن هذا القانون يسري على خالق الخلق نفسه، وذلك غير صحيح؛ فالصانع لا يشترط فيه أن تنطبق عليه القوانين التي يخضع لها المصنوع؛ إذ المصنوع والقوانين التي يخضع لها من صنع الصانع. فمصنوعات الإنسان مثلا لا تسري عليها كل صفات الإنسان؛ فالإنسان يريد ويعلم، ويدرك ويفكر، ويأكل ويشرب، وينام، ويشتهي، ويحب، ويكره؛ فهو شيء وما يصنعه شيء آخر. ولكل منهما خصائصه، وهذا الكون شيء وخالقه شيء آخر، وللكون خصائصه التي منها أنه مخلوق غير خالق. ولله خالقِ الكون صفاته التي منها أنه خالق غير مخلوق.

رابعا: شبهة أن هذا الكون بكل مكوناته الجامدة والحية خلق بالصدفة

الجواب عن هذه الشبهة:

إن للمصادفة قانونا رياضيا عقليا لا يمكن الخروج عنه وهو:

"أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة". فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من الاعتبار فكلما كثر عددها قبل حظ المصادفة؛ فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين، وإن كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة واحد ضد عشرة، وهكذا، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخما هائلا يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل.

أمثلة توضيحية

ولإدراك المسألة بشكل واضح إليك هذه الأمثلة:

المثال الأول:

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها، فجاءت هرة فقلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها، ثم جاءك متفقد الحروف فأخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعنى. فالقضية في هذه الحالة قابلة للتصديق جدا . ولو قال لك إن الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة تستبعد ذلك ولكن لا تراه مستحيلا.

ولكن لو أخبرك أن جميع الحروف عند اختلاطها بالمصادفة تشكلت بكاملها وكونت كتابا كاملا من 500 صفحة يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها، لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحالة بديهة واضحة.

ولو وجدت عشر إبر مرقمة من واحد إلى عشرة، وقد أدخلت الأولى في ثقب الثانية، والثانية في ثقب الثالثة، وهكذا إلى أن تم إدخال الإبر العشر، فإن نسبة خروج هذه الإبر العشر متسلسلة بهذه الكيفية بالمصادفة هو واحد إلى عشرة مليارات، ولو كانت الإبر إثنى عشر

لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار، ولو كانت الإبر أحدى وعشرين لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار.

فكيف بالتزاحم الذي يجري بين (500) ألف حرف لتكون 125 ألف كلمة تقريبا بأشكار وترتيبات لا تعد ولا تحصى؛ فإن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة فكيف بأعقد من ذلك؟

المثال الثاني:

هب أن شخصا قال إن مكتبا جميل الصنع دقيق الإتقان تكونت جدرانه بلا مكون، ثم لما تكونت جدرانه طارت أخشاب في الهواء وارتطم بعضها ببعض فجاءت كل قطعة منها في مكانه المناسب وبالطول والعرض والشكل المناسب، ثم طارت مسامير من أحجام مختلفة، ودقت نفسها في أماكن التقاء القطع بالأطوال المناسبة، ثم نزلت من الفضاء سوائل تعطي سطح المكتب اللون المرغوب، ثم تشكلت قطع من المعادن مكونة أقفال المكتب ومفاتيحه ومقابضه. لا شك أنه سيوصف بالخبل أو الجنون.

المثال الثالث:

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتركب من خمسة عناصر هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأكسوجين والكبريتين، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد أربعمائة ألف ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيمياوية في الطبيعة اثنين وتسعون عنصرا (92) تقريبا موزعة كلها توزيعا عشوائيا فإن احتمال اجتماع العناصر الخمسة المكونة للبروتينات لكي تكون جزيئا من جزيئات البروتين، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم بمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري "تشار لزبر جين جاي" بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء ابروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى $(10)^{160}$ أي بنسبة 1 إلى رقم 10 مضروبا في نفسه (160) مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بالكلمات.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد مادة أكبر مما يتسع له كل هذا الكون ببلايين المرات، وأما الزمن الكافي لتكوين هذا الجزيء الواحد على سطح الأرض فهو عشرة من السنين مضروبة في نفسها (243) مرة أي $(10)^{243}$ سنة.

هذا علاوة على أن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية وإذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها فلا تصلح البتة للحياة بل تكون سموما أحيانا.

وقد حسب العالم الإنكليزي (ليتز) الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ $(10)^{48}$. وعلى ذلك فمن المحال عقلا أن يبنى جزيء أبروتيني واحد عن طريق المصادفة؟! .

فكيف يقال بأن الكون بما فيه قد تكون بطريق المصادفة أي أن الجزيئات الكهربائية التي منها تتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة؟!، وكان بعضها سالبا والآخر موجبا والثالث معتدلا مصادفة؟!، وكل جزيء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة؟! وبمجموعة متدرجة من واحد إلى (228) من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة؟!، والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النواة مصادفة، وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاها لكان جرم كالأرض بحجم البيضة مصادفة. وكان وجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب مصادفة؟!. وكان وجود إمكانيات الاتحاد بين العناصر لتشكل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية في غلافات بعض الذرات مصادفة؟!.

وكان اتحاد العناصر واجتماعها لتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس مصادفة؟!. وكان انتظام الشموس في مداراتها، والكواكب في مساراتها كما تنتظم الالكترونات مصادفة.
وكانت الحرارة الموجودة في الشموس والإشعاع والترتيب مصادفة، ووجدت الأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة: قشرتها، هواؤها، ماؤها، جبالها،أنهرها، أبحرها، وديانها، سهولها، أشجارها، ثمراتها، إلخ مصادفة؟!، ووجدت الحياة بتنوعاتها وتركيباتها وأجهزتها المعقدة مصادفة، ووجد الإنسان بعقله، وفكره، وتركيبه، وروحه، وأخلاقه، واستعداداته المختلفة وإمكاناته المتنوعة مصادفة؟!.

فلا يخفى إذن أن القول بأن الكون وجد صدفة قول بوقوع سلسلة من المستحيلات العقلية لا حصر لها. هذا علاوة على أن الصدفة قائمة على التفاعل بين الأشياء، والتفاعل لا يمكن أن يفسر وجود العالم إذ يستحيل أن يقع التفاعل بين عدمين، أو بين موجود وعدم، فلا تفاعل مطلقا إلا بين شيئين موجودين.

والتفاعل الذاتي يستحيل أن يفسر به صنع محكم له وظيفة، وكل أجزاء الكون كذلك؛ ذلك أن التفاعل الذاتي عن طريق الصدفة يمكن أن يكون على جهة البناء والتأليف، ويمكن أن يكون على جهة التفريق والتبديد .

خامسا: شبهة أن خالق الأشياء كلها هو الطبيعة

إن خالق الأشياء كلها من سماء وأرض وماء وحيوان وإنسان هو الطبيعة، أو انتقاء الطبيعة أو الأسباب، أو التشكل الذاتي، أو التفاعل الكيمياوي الذي عن طريقه حدث الانفجار الأعظم، أو السديم الأساس وهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد وإن نوَّعوها تضليلا للسامع فما ينقض واحد منها ينقض بالضرورة باقيها. بل الطبيعة هي المدبر للكون بنظمه الدقيقة وحيويته وغرائزه وحركته.

الجواب عن الشبهة:

– أن الطبيعة في اللغة هي السجية والخُلق، وهي عند الطبيعيين الذين ينسبون إليها الخلق ذات مفهومين:

الأول: أنها عبارة عن الأشياء ذاتها، فالجماد والنبات والحيوان والكائنات كلها هي الطبيعة.

الثاني: أنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها، وقابلياتها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وملاسة وخشونة وحركة وسكون ونمو واغتذاء وتزاوج وتوالد؛ فكل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة.

فالمفهوم الأول للطبيعة يعني أن الأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء، والإنسان خلق الإنسان، والنبات خلق النبات. فكل الأشياء أوجدت ذاتها؛ فهي المخلوق والخالق، وهي الحادث والمحدث في الوقت ذاته.

وهذا القول بين البطلان واضح السخف فهو إما ادعاء بأن الأشياء خلقها العدم، وهو مستحيل عقلا، وإما إدماج للخالق والمخلوق في عين واحدة؛ فالسبب هو عين المسبب، وهو مستحيل أيضا؛ فهو إذن تهافت وتناقض صارخ فاضح.

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ () أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ {الطور: 35- ٣٦}.

وأما المفهوم الثاني للطبيعة فيعني نسبة الخلق لقابليات الأشياء وخصائصها. والقابليات والصفات والخصائص أعراض للأشياء تابعة لها؛ فالطبيعة لا بد لها من خالق هو الذي خلقها وركزها في العناصر، ذلك أن الطبيعة بعبارة أخرى قوة موضوعة في الشيء تجري بها صفاته على ما هي عليه فقط، فلا بد للشيء الذي يحملها، ولا بد لها هي من خالق مريد قادر عليم صنع ذلك ووضعه ورتبه ونوع الطبائع.

مثال كاشف: وإليك مثالا كاشفا وموضحا.

إن تحرك أجزاء محرك السيارة واحتراق البنزين والقوة الدافعة في الانفجار كل ذلك قابليات وطبائع وخصائص.

فهل قابلية الاحتراق وخاصية الانفجار وقوانين الميكانيك هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة؟

فالقابليات والخصائص والطبائع سبب في اندفاع الظواهر وبروز المظاهر وتعيين هيئة التركيب والتصنيف لا غير ولا دخل لها البتة في إبداع وخلق نفسها أو خلق الشيء الذي يحملها.

فالقول بأن الطبيعة هي خالق الأشياء يعني أنها خلقت نسها بمعنى أن العدم السابق عليها هو الذي خلقها، وذلك مستحيل، وأنها هي التي خلقت الشيء الذي يحملها والذي وجد

قبلها وذلك مستحيل أيضا إذ هو قول بأن الصفات تخلق الذات؛ فإذا كان يستحيل أن يخلق الشيء ذاته، فكيف تخلقه صفاته؟

وقد يراوغ المدعي بأن الطبيعة هي الخالق بعبارة اقتضته الطبيعة أو تشكل بنفسه، أو أوجدته الأسباب، وكلها بمعنى واحد، وهو ادعاء كما رأيت مضحك مستحيل ولتقريب سخفه وتفاهته أفرض أن بدويا جاهلا لم ير في حياته غير الخيام، رأى اتفاقا في قلب بعض الصحاري قصرا مشيدا هو عبارة عن صرح ممرد مبني على أحسن طراز وأجمل شكل وأدق هندسة؛ فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه، فقال في نفسه ليس في هذه الصحراء كلها من يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع، فلا بد أن الباني يجثم في جوف البناء نفسه، ثم راح يفتش ويبحث عنه في الغرف من حوله فلم ير أحدا.

ولكنه عثر على أوراق فيها خارطة البناء ومواده وتفاصيل هندسته، فأعرض عن كونها لا يد لها ولا بصر ولا إرادة فتعلق بها قائلا: ليس ثمت غيرها، فهي المشيد والباني. فكذلك من تعلق بالطبيعة فجعلها خالقا نظر إلى صرح هذا الكون العظيم فأدهشه إبداعه وانسجامه وتنظيمه وإحكامه، ففتش في جوانبه ولم ير غير القوانين والطبائع والخصائص والقابليات التي أودعها الله في موجودات هذا الكون وأعرض عن كونها صفات تابعة لوجود الأشياء، لا إرادة لها ولا علم، وقال: ما ثم إلا هي، فلا بد أنها هي خالق صرح هذا الكون، وسماها الطبيعة أو اقتضاء الطبيعة أو الأسباب أو التشكل الذاتي، فهل مثل هذا السخف والحمق يحول المستحيل جائزا؟.

وأعلم أن السبب في تشبث الكفار بهذه الشبهات الخمس التافهة المستحيلة عقلا هو أن العقل قد يمرض وقد يشل وقد يغتر صاحبه به، فيجاوزه طوره.

فإذا اعتراه شيء من ذلك فسدت قياساته، واختلَّت تصوراته، وانسدت مسالكه، والتوت أحكامه؛ ذلك أن العقل كسائر القوى تتأثر أعماله بأي داء يصيبه. فالعين إذا مرضت يختل إبصارها فقد ترى الشيء شيئين، وقد ترى اللون لونا آخر، وقد تعجز عن إبصار بعض ما يبصره سليم البصر، وقد تشل رؤيتها بالكلية فلا ترى شيئا. والأذن إذا مرضت قد تعجز عن

تمييز الأصوات أو عن سماع بعضها، وقد تسمع الرنين الخفيف صوتا كبيرا مزعجا، وقد تشل بالكلية فلا تسمع شيئا.

والعقل كذلك إذا مرض قد يتصور الشيء بخلاف ما هو عليه، وقد يعجز عن إدراكه، وقد يجعل من الأوهام أمورا يقينية، وقد يشل فيتوقف عن التفكير بالكلية، فيخضع صاحبه لسلطان التلقين وجاذبية العاطفة وميل الهوى. ومرضه ينجر عنه اختلال إدراك الحواس الأخرى، لأنه هو الحاكم عليها.

وإذا اغتر صاحبه به تجاوز به حدوده، وأقحمه في ميادين لا طاقة له بها.

فالقوة الإدراكية وإن كانت أتم قوى الإنسان فإنها محدودة كسائر القوى والحواس؛ فكما أن العين لا تبصر كلما يمكن إبصاره، والأذن لا تسمع ؛ كل ما يمكن سماعه؛ فكذلك ليس من شأن العقل أن يدرك حقائق جميع الأشياء وأحوالها.

فقدرة العقل محدودة مرتبطة بالظواهر المدركة بالحواس، فالعقل له استعداد نظري لإدراك العلاقات القائمة بين الآثار الحسية، فمن الإحساسات يكَوِّن إدراكا حسيا، ومن المدركات الحسية يكَوِّن مدركات عقلية. وإذا حاول الخروج عن ميدان الظواهر والدخول في كنه الأشياء بذاتها وقع في الخطأ. فمعرفة الإنسان محدودة بحدود كثيرة، فهي محدودة بحكم طاقة الحواس التي يستمد مها معرفته.

فالقوى التي وهبنا الله ومنها العقل إنما وهبنا بها من العلم قدر ما نتمكن به من الانتفاع بخيرات هذا العالم واتقاء شروره والاهتداء إلى مبدعه وأداء حقوقه.

أما اكتناه حقائق الأشياء وردها إلى أسبابها البعيدة، وأصولها الأولى، فليس مما نحتاج إليه؛ ولذلك لم يجعل الله لعقولنا إليه سبيلا.

ومن أمثلة مظاهر عجز العقل ومحدوديته أن القسمة في منطقه لا تقبل إلا أن يكون العالم محدودا أو غير محدود، ولا يستطيع أن يتصور وجود قسم ثالث يخرج عن هذين القسمين، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يتصور للعالم بداية أو نهاية ولا يستطيع أن يتصور شيئا لا بداية له ولا نهاية.

مع أنه إن سلم من المرض يجزم من خلال نظره في أي جزء من أجزاء الكون بوجود خالق أزلي أبدي لا حدود لعلمه وقدرته وإرادته، ذلك أن التصديق والتصور ليسا متلازمين فهو يصدق بسهولة من خلال النظر في الآثار لكنه عاجز عن التصور، فلو رأى أثرا لا يشك في وجود محدثه لكنه قد يكون جاهلا تماما بصورته، ولو رأى صناعة منظمة لغاية لما شك في أنها صنعها عليم قدير مريد وإن عجز عن تصوره.

والمعاني التي تصيب العقول بأنواع العلل منها: الكبر والحسد وحب الرئاسة وحب التملك والتقليد الأعمى والولوغ في الشهوات والخوف والطمع ...إلخ.

وفي حالة مرض واحدة من قوى النفس هذه الأمراض يختل عملها؛ فإن المريض إذا حاول أن يقنع الناس بأن أحكام قواه المريضة أحكاما صحيحة وغيرها أحكام سقيمة ولو كان المرض هو الأكثر في محيطه فإنه لا يستطيع بداهة أن يقدم أي برهان أو دليل على ذلك؛ لأن محاولته عبارة عن رفع للواقع ورد لأحكام العقل اليقينية.

ومن هنا لم يستطع الكفار بمختلف أصنافهم عبر التاريخ أن يقدموا أي دليل على كفرهم وإنكارهم لوجود الله تعالى وصدق أنبيائه.

وقد رأيت تفاهة واستحالة ما جمعوه وادعوه من شبهات؛ ذلك أنهم نكبوا عن طريق التحاكم إلى العقل الصحيح، وحاولوا أن يستدرجوا عوام الناس إلى حظيرتهم بتأليف عبارات خداعة وأساليب ملتوية ومصطلحات براقة وعناوين فارغة بأسماء حسنة وأحاطوها ببهرج من الدعايات الكاذبة حتى يخدروا العقول فيتسرب إليها الباطل عن غير وعي فتلهج به تقليدا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ {الأعراف ١٧٩}.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ { البقرة ٩١}.

.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ {الزخرف ٣١}.

وقال تعالى: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ () أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ()أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ {ص ٨}.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ () قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ { الأعراف: 12- 13}.

ولو انتبه بعض الكفار المستبطنين لبعض الأمراض العقلية إلى أن أحكامه العقلية خاطئة وأن أحكام أهل الإيمان بالله صحيحة دقيقة، فإنه يتيقن الحق حينئذ، ولكنه يجحده ويأبى أن يعترف به بسبب ما يستبطنه من أمراض.

قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ {النمل ١٤}.

وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ {البقرة ١١٤}.

وهذه الأمراض التي ذكرنا وأشباهها قد تمنع الموقن بحقائق الإيمان المقر بها من العمل بمقتضاها، بل وبارتكاب نواقض الإيمان والولوج إلى الكفر والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ () وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ ﴾ {الأعراف: 175-176}.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ () فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ () فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ {التوبة: 75-77}.

المبحث الثالث: من أدلة وجود الله جل جلاله

إن أدلة وبراهين وجود الله القطعية نظرية كانت أو عقلية أو علمية يعسر حصرها، وسننبه هنا عليها ببعض أمثلة منها:

أولا: شهادة أرباب العلوم التجريبية والفلسفة

يقول العالم الفلكي الإنكليزي " هيرشل" وهو أحد أكبر علماء الفلك في العالم: (وكلما اتسع نطاق العالم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته.

فالبيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده).

ويقول الفيلسوف الفرنسي الشهير "فولتير": (إني إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة استنتج من ذلك أنه لا بد أن يكون هناك عقل قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعة دلالة حقيقية. وكذلك إذا تأملت في آلات الجسم الإنساني أنستنتج أنه لا بد أن يكون هناك عقل قد نظم أجزاءه وأجهزته. والذين يزعمون بأن الكون خلق بالاتفاق المجرد، وأن أعضاء الإنسان مثلا لم تخلق لتؤدي غرضا مقصودا، ولكنها أدت هذا الغرض اتفاقا؛ فيدعون أن العين لم تخلق للرؤية والأذن لم تخلق للسمع واللسان لم يخلق للكلام هؤلاء مصابون بأفظع الغباوات وأكثف العمايات التي تصيب العقل الإنساني).

ويقول الفيلسوف الفرنسي "روسو": (إن الوجود في حركاته المنتظمة المتلائمة الخاضعة لقوانين ثابتة لا تظهر فيه الحرية التي تظهر في الحركات الإرادية للإنسان والحيوان، فالوجود ليس بحي في نفسه يتحرك في ذاته وبإرادته؛ فحركاته آتية إليه من سبب خارج عنه. فأي عين لا يكشف لها نظام هذا الوجود عن أنه صنع لحكمة ليس فوقها حكمة، وبأي سفسطة يستطيع الإنسان أن يجحد نظام هذه الكائنات، والتضامن العجيب الذي بينها في حفظ

مجموعها، فهذه العلائق التي لا تحصى بين الكائنات لا تضيع منها واحدة ولا تختلط بغيرها في المجموع. فما أبعد عن العقل تلك الفروض التي تزعم أن هذا النظام البديع المتلائم الأجزاء هو نتيجة الحركة العمياء المطبوعة في المادة بالاتفاق.

إن الذين يجحدون وحدة القصد الظاهر في العلائق الموجودة بين أجزاء هذا الوجود العظيم إنما يحاولون عبثا أن يخفوا سفسطتهم تحت ستار التجريدات والترتيبات والعبارات الخيالية، ومهما عملوا فمن المحال أن يقنعونا بأن المادة الميتة تستطيع أن تنتج كائنات حية وأن الضرورة العمياء تستطيع أن تخلق كائنات عاقلة).

يقول "انيوتن": (ولا تشكُّوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قاعدة الوجود).

ويقول "هريرت اسبنس": (العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه... إن العالم الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تركبت من الأكسوجين والهيدروجين بنسبة خاصة، بحيث لو اختلت هذه النسبة لكانت شيئا آخر غير الماء يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب).

ثانيا: شهادة تخصيص الإرادة أو اختيار أحد الممكنات أو ترجيح أحد الاحتمالات

هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة بنجومه وشموسه وكواكبه ومجراته وأرضه، ويخضع لقوانين واحدة في حركته ومداراته ونظمه.

ولو اختل شيء في نظامه وقوانينه لفني كأن زاد سمك الأرض ببضعة أقدام، أو قل ارتفاع الهواء، أو قل شعاع الشمس أو زاد بالنصف، أو ابتعد القمر عن الأرض بنسبة معينة، أو قل الأوكسجين أو زاد بنسبة معينة، أو كانت محيطات المياه حلوة، أو كان البخار أخف من الهواء، أو كان محور الأرض معتدلا، أو كانت الأرض في محل عطارد، أو انعدمت قوانين الجاذبية، أو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها، أو اختلت قوانين الحرارة، أو زالت الجبال أو لم تكن، أرزاق الأرض فيها لما كانت حياة مطلقا.

وما ذكرناه جملة من مقدمات الحياة، وكل مقدمة يمكن أن تكون على ملايين الأشكال، ولكن واحدا فقط من ملايين هذه الممكنات هو الذي اختير من كل مقدمة حتى وجد الجو المناسب للحياة بأنواعها أجناسها، وتعقيداتها، فلا بد أن إرادة مريد واختيار مختار وترجيح مرجح وتخصيص مخصص من وراء ما اختير وأريد ورجح وخصص.

إن كل شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة معينة أو على غيرها من الصفات وفي زمان أو غيره من الأزمنة وفي جهة أو غيرها من الجهات وعلى مقدار معين أو على غيره من المقادير وفي مكان أو غيره من الأمكنة.

فإذا كان من بين الممكنات كلها يختار دائما واحدا هو الأحكم والأحسن والأتم نظاما والأكمل ترتيبا والأروع إبداعا والأكفء وظيفة، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى والزوال، فلابد أن إرادة عليم خبير اختارت وأرادت ورجحت هذا الواحد من بين احتمالات الإمكانات؛ وهي إرادة الله جل جلاله.

ثالثا: شهادة ظاهرة الحياة بنشأتها وتنوعاتها وإنسانها وأخلاقه

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيميائيا فكلفت بهذا الموضوع رئيس المعهد الكيمياوي "لمور بارين" وأخذ فريقا تفرغ معه للموضوع وتواصل العمل فيه قرابة عشرين عاما وأعلن سنة 1962 ما توصل إليه في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم آنذاك وهو أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المخبر.

وعندما اكتشف العلماء في الغرب حمض DNA قالوا إن سر الحياة أصبح بأيدينا؛ ذلك أن بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيولينات نووية تقاوم مسببات الجراثيم وتتصف بخواص حيوية تمكنها من التكاثر والتمثل.

وهذه الحمات اكتشف أنها أحماض نووية خالصة تحيط بها مادة هويولينية، وأن الحمض المكون لها هو أحد نوعين إما DNA وإما RNA وقد أمكنت معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة بفعل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمخبر الالكتروني وغيرهما.

واستطاع العالم "لوشواء" صناعة هذا الحمض وأخذ جائزة "نوبل" على اصطناعه بنفس صيغة الحمض الحي لكن حمضه لا حياة فيه، فالفرق بين الحمضين مع أن الصيغة واحدة هي الفرق بين الحياة والموت، والفرق بين الصنم والجسد الحي. وهكذا انتهت هذه المحاولات بجواب قاطع وهو أن الحياة سر عجيب من صنع الله.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ {الحج ٧٣}.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الإسراء ٨٥}.

فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله وما في الحياة من عجب لا يعلل إلا بالله، وكل جزئية من هذا كله آية على الله وإن ادعى بعضهم أن الطبيعة تخلق الدود الذي يتكون على بقايا فضلات الإنسان والحيوان، وأن الجراثيم التي تعفن الطعام وتفسده قد جاءت من الطبيعة، وأن الدود والجراثيم لم يتولدا من حيوانات سابقة، وبتقدم العلم اضمحل هذا الوهم وتبين أن الدود الذي يكون على الفضلات وغيرها قد جاء من بيض صغير لا تراه العيون وأن الطعام يحفظ من التعفن _ عندما تقتل الجراثيم التي فيه بالحرارة أو الأشعة ويعزل عن الهواء الذي تنتقل عن طريقه جراثيم أخرى.

نشأة الحياة إذن دليل قاطع على وجود الله، وتعقيدات الحياة دليل ساطع على الله، وتنوع الأحياء دليل كاشف على الله، والنفس البشرية باختلافها وعجائبها دليل شاهد على الله.

رابعا: شهادة قانون السببية

وهو أنه لابد لكل حادث من محدث، ولا بد لكل مسبب من سبب، والفعل يدل على الفاعل، والمخلوق يدل على الخالق، ويستحيل على حادث أن يحدث بذاته، وهو من أول مبادئ العقل المسلم بها.

فالأثر لابد له من مؤثر والصناعة المنظمة المؤدية لوظيفة لابد لها من صانع، وهي تدل على صفات في الصانع. فالسيارة صانعها يملك قطع الغيار، ويعلم خصائصه، وهو قادر على صناعتها، خبير بتركيب أجزائها... إلى آخر الصفات التي تستشفها بعقلك عند رؤية أية صناعة. ومن هنا يرشد التفكير في الأحياء والأموات إلى الجزم بوجود خالقها وحياته وحكمته وقدرته وإرادته وعلمه.

خامسا: شهادة إحكام الصنعة والإبداع والجمال والعناية والتكامل بين أجزاء هذا الوجود والتناسق والترتيب فيه والحكمة

فإعداد المخلوقات وهي في بطون أمهاتها وفقا لما يناسب ظرفها الذي ستعيش فيه، وإيجاد التوازن العجيب والمقادير والمقاييس الموزونة الدقيقة وتوزيع الأرزاق والأقوات وتيسيرها للخلق يذعن أمامه العقل لوجود مدبر عليم خبير حكيم مبدع جميل رازق واحد فرد أنشأ هذا الخلق وأراده.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ { آل عمران ٦}.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ { القمر 49}.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ { الحجر 21}.

سادسا: شهادة الهداية

إن الهداية العجيبة لكل مخلوق إلى وظيفته المقررة له في هذه الحياة وحفظه مما لم يقدَّر عليه، ورحمة الأمهات في شتى الكائنات لأولادها، وسير الأفلاك في مداراتها المرسومة كلها صفات يجزم العقل أن من ورائها هاد حافظ رحيم بيده الأمر.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ () وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ {الأعلى: 2-3}.

وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ { الرعد 11}.

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ {الأعراف 54}.

سابعا: شهادة الفطرة

ما من إنسان إلا وعنده شعور ذاتي أقوى من الشعور بالجوع والعطش بأنه مخلوق وله خالق ورب.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ { الروم 30}.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم: (كل مولود يولد على الفطرة).

وهذا الشعور يتحول أحيانا إلى نداء مسموع ترفع فيه الأيدي وتخضع فيه النفوس لعظمة الله وجلاله.

سأل رجل جعفر الصادق عن الله فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلي. فقال: هل هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك حينئذ في الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر ببالك واندمج في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو الله.

وقس على ذلك جميع الشدائد والكروب التي ينقطع فيها الأمل من المخلوق.

قال تعالي: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ { الروم 33}.

لكن هذا الشعور القوي المركوز في الفطرة عندما لا يجد الطريق الصحيح: طريق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ينحرف فيتوجه إلى عبادة الأوثان أو الأشخاص أو النجوم أو الطبيعة كلها أو الهوى. قال صلى الله عليه وسلم في حديث الشيخين: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

ثامنا: شهادة العلة الغائية

وهي أن الأشياء التي لها غاية ووظيفة وكل شيء في الكون كذلك لا بد لها من مريد قصدها أولا، وأرادها ثم أبرزها إلى الوجود، ولا يمكن أن يتخلف شيء في دنيا الناس أو في جوانب الكون عن ذلك.

تاسعا: شهادة الكون كله

فالفعل مرآة لبعض صفات فاعله؛ فلو تأملنا هذا الكون لوجدنا أن مخلوقاته والأفعال والأحداث فيه من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة محكمة في نظامها لأنها من صنع حكيم وموجهة في سيرها لأنها من صنع مريد وعظيمة في تكوينها لأنها من صنع عظيم وخاضعة لنظام موحد ومتناسقة في أعمالها مترابطة في خلقها لأنها من صنع الواحد الأحد الحاكم المهيمن دائبة في سيرها مستمرة في نظامها لأنها من صنع موجود دائم.

فما من ظاهرة في هذا ا لكون إلا وتدل على وصف من أوصاف خالقها، فإيجاد العالم وخلقه لابد من ورائه من موجد خالق وحياة الكائنات من ورائها حي بارئ، وهداية الخلق إلى ما قدر لهم من ورائها هاد..... وهكذا .

فكل ظاهرة في الكون تدل على اسم من أسماء الله تعالى؛ فالإبداع والجلال والجمال تدل على البديع الجميل الجليل، وإجابة الدعاء تدل على اسمه المجيب، والنعم تدل على اسمه المنعم، والوحدة تدل على اسمه الواحد، والأرزاق تدل على أسمه الرزاق، والإعزاز والإذلال والنصر تدل على المعز والمذل والناصر، والترتيب في الأشياء يدل على المقدم والمؤخر، والانتقام يدل على المنتقم، والنفع والضر يدلان على النافع والضار...وهكذا.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ {البقرة 255}.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ { الحشر 24}.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ () اللَّهُ الصَّمَدُ () لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ () وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ { الإخلاص }.

عاشرا: شهادة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم

إن صانع الصناعة وفاعل الفعل لا يعرف كثير من أوصافه بواسطة مشاهدة فعله بل لابد لمعرفة كثير من صفاته من الخبر الصادق عنه.

فكثير من صفات الله تعالى ومغيباته لا سبيل إلى معرفتها إلا بالخبر الصادق، وهو خبر الرسل الذين أيدهم الله بالمعجزات القاطعة التي ليست في طوق البشر، ولا بد أنها من عند خالق البشر والبراهين الساطعة والأدلة والبينات الشاهدة بأنهم رسل صادقون حقا في أخبارهم عن الله.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ { الحديد 25}.

المبحث الرابع: أدلة صدق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

أولا: أصل اللغة

إن أصل اللغة التي لا تصلح تربية ولا عيش و لا تصرف إلا بها لا سبيل إلى الاتفاق عليه إلا بلغة أخرى عند المحققين.

وأصول الحرف والصناعات والعلوم كلها لا يمكن أن يهتدى إليها إلا بتعلم، فوجب بالضرورة أنه لا بد من إنسان فأكثر علمهم الله هذا كله ابتداء دون معلم، بل بوحي منه، فإذن لا بد من نبي أو أنبياء بالضرورة.

فكل علم أو صناعة أو حرفة لم يشاهد أصلها ولم يسمع به فلا سبيل إلى معرفتها وتطويرها وتفريعها وتفصيلها ولا إلى اختراع مثلها.

فالشخص الذي يولد أصم لا يمكنه البتة الاهتداء إلى الكلام وإلى مخارج الحروف. والدليل على أن ذلك ممتنع في الطبيعة البشرية أنه لم يوجد أحد في العالم على مرور الأزمان وقع له ذلك، فكان لابد من وحي من الله تعالى في ذلك على لسان أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ () قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ {البقرة 31-32}.

ثانيا: معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

إننا رأينا أو سمعنا من طريق متواتر –إذ لا فرق في الصحة بين المشاهد والمتواتر– أن طبائع قد أحيلت وأن أشياء في عد الممتنع قد وجدت كبحر انفلق وعلا كل فرق منه فصار كالطود العظيم، وكميت أحياه إنسان، وكقمر انفلق نصفين.

قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ () وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ () وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ () ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ () إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ () وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ { الشعراء 63-68}.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ { المائدة 110}.

وقال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ () وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ { القمر 1-2}.

فجزمنا أنه لا بد أن يكون محيل هذه الطبائع، وفاعل هذه المعجزات هو الله الخالق، وأن الذين أيدهم فصدقتهم في قولهم هذه المعجزات أنبياء أوحى الله إليهم، ونصرهم، وصدقهم بخرق العادات؛ ذلك أن هذه المعجزات جرت على يد رجال يدعون إلى الله ويعلنون أنهم رسله، ويستشهدون بهذه المعجزات التي تأتي وفق دعائهم ورغبتهم وفي وقت تحديهم بالإتيان بها؛ فعلم بالضرورة أنهم مبعوثون من قبل الله وأنهم صادقون في ما أخبروا به.

ثالثا: البعد الوظيفي في الخلق

إن كل شيء في الوجود تجزم العقول بأنه خلق لوظيفة، والعلوم الحديثة كشفت وظائف كثير من أجزاء الكون، فإذا سألنا أهل الطب عن وظائف أعضاء الإنسان؛ قالوا كل عضو يقوم بوظيفة لصالح الكيان الإنساني بأكمله؛ فالفم يأكل للجسم كله، والقلب يضخ الدم للجسم كله.

أتخطر على فكر عاقل أن يكون الإنسان كله خلق عبثا؟!

إذا كان الإنسان العاقل يتنزه عن إهدار ما أعده وتدمير ما كونه وتضييع ما صنعه، فتنزيه خالق العقل والعقلاء عن أن يذهب ما خلق سدى من باب أولى، وكيف يعترف الإنسان بالحكمة من ملبسه ومسكنه ومطعمه وأنفه وفمه وعينه ...

ويقرر هذه الحكم ويفصلها، ويعتبر الجاهل بها من أحمق الناس، ولا يعترف مع ذلك بأن لكيانه كله حكمة ولوجوده بأكمله غاية!!

فلا شك أن الإنسان خلق لحكمة يجزم العقل بذلك ولا يقبل غيره.

والكشف عن هذه الحكمة الجليلة وغيابها عن الحس في الدنيا يستلزم أن يوحي الله إلى بعض عباده بها وبمتطلباتها وبمقتضياتها، وهؤلاء الذين أوحي إليهم هم رسل الله، كما أن غيابها من جهة أخرى شاهد، بأن هناك حياة أخرى تظهر فيها الحكمة من خلق الإنسان كاملة جلية كما تظهر الحكمة من أجهزة الجنين كالمعدة والفم والقدمين بعد خروجه من عالم بطن أمه إلى عالم الأرض.

فقد شاء الخالق أن تكون الحياة الدنيا مقدمة لحياة الآخرة، كما أن الحياة في الرحم مقدمة للحياة الدنيوية. وقد أخبر الأنبياء بأن العبادة هي الحكمة من وجود الإنسان. والعبادة طاعة طوعية من خاضع معظم ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة حالية وأبدية. والفعل لا يدخل في الوجود إلا بعلم جازم تنبعث به الإرادة، فلا تجد محيصا من الإذعان وبالإرادة الجازمة تنبعث القدرة، فلا تجد محيصا من الامتثال، وبالقدرة الجازمة تتحرك الأعضاء فلا تجد محيصا من الحركة. ومن صفت حركاته الفكرية من شائبة الباطل وحركاته القولية عن شائبة الكذب وحركاته الفعلية عن شائبة الشر، فهو الإنسان الكامل الذي حصل له كمال السعادة بالعبادة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ () مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ () إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ {الذاريات 56-58}.

وكل تنكيب عن عبادة الله إهدار وتضييع ومسخ للإنسان أو تحويل أي شيء عما صنع له وخلق لأجله إهدار ومسخ وتضييع له؛ وذلك كمن يحول عينه إلى أصبع أو أنفه إلى فم أو بندقيته إلى حطب.

فكل ما استعمل في غير الوظيفة التي خلق لها أضرَّ ولم ينفع كاستخدام الرأس في السير بدل الأرجل والحجر في الشرب بدل الماء.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ () فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ {المؤمنون 115- 116}.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا () وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ {الكهف 7-8}.

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ () الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ {الملك 1-2}.

رابعا: معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالدة وهي القرآن

فقد جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم للعرب الذين في زمانه على أنه كلام ربه. فكذبه بعضهم، وقالوا: إنه افتراه على الخالق جل جلاله، وأنه بإمكانهم أن يقولوا بمثله لو شاءوا ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ {الأنفال 31}.

وقال لهم إن كنتم صادقين فاجتمعوا أنتم وما تستطيعون جمعه من الناس وافتروا أنتم أيضا عشر سور مثل هذا القرآن، وإن لم تستطيعوا أن تفعلوا ذلك فاعلموا أنتم وغيركم من الناس أن هذا القرآن ليس من كلامي لأنني أنا واحد منكم وما لم تستطيعوا مجتمعين فكيف أستطيعه وحدي؟!

وقد عجز العرب في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بمثل القرآن بل مثل سور منه أو حتى سورة واحدة.

لأنهم لو استطاعوا ذلك لفعلوه، ولو فعلوه لتناقله الناس، بل لأدى إلى انتصار الكفر، ورجوع أهل الإيمان عن الإيمان، ولم يحصل شيء من ذلك، بل ثبت أهل الإيمان على إيمانهم، وازدادوا فيه يقينا، ودخل أهل الكفر في الإسلام.

وقد اشتمل القرآن علاوة على ذلك على معجزات كثيرة ظهر منها في كل عصر ما يناسبه.

فإذا كان إعجازه البلاغي قد أذعن له العرب في زمن رسول الله صلى الله عيه وسلم، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ {الإسراء 88}، وقال تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ { يونس 38}.

فقد كشف للمؤرخين والجغرافيين عن إعجازه التاريخي والجغرافي؛ قال تعالى: ﴿ألم ()غُلِبَتِ الرُّومُ () فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ () فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ { الروم 2- 4}، فكان الأمر كما وصف القرآن في الوقت والمكان الذي هو أخفض نقطة بالفعل على وجه الأرض.

وكشف لأساطين العلم الحديث عن إعجازه العلمي قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ () بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ { الرحمن 19- 20}

. وقد كشف العلم الحديث عن هذا البرزخ الحاجز العجيب الذي يحول بين الماء المالح والماء العذب، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ويحتفظ كل منهما بمجراه الخاص به. وقال تعالى: ﴿(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ { النساء: 56}.

وقد كشف الطب في القرن العشرين بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن أن أعصاب الإحساس تتجمع في الجلد، فإذا احترق ذهب الإحساس بالكلية.

المبحث الخامس: غاية الشرع هي إسعاد الإنسان

إن القصد الأصلي من وضع الشريعة هو إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا وفقا لما تقتضيه العبودية من تعظيم وطاعة وانقياد وخضوع كما هو عبد لله اضطرارا ليسعد في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن الله رتب السعادة على الطاعة كترتيبه الري على شرب الماء، ورتب الشقاء على المعصية كترتيب الإحراق على النار.

فالرسل لم يرسلوا والشرائع لم توضع إلا لتحصيل مصالح العباد ودفع المفاسد عنهم. فكل التكاليف ترجع إلى قيام مصالح العباد وتنميتها وحفظها ودفع المفاسد عنهم دينية كانت أو نفسية أو عقلية أو عرضية أو مالية أي أن الرسل ما بعثوا وما وضعت الشرائع إلا لتحصيل لذات العباد ومتعهم الحسية والروحية، ودفع الآلام والعذاب الحسية والروحية عنهم في الدنيا والآخرة.

قال الرازي في تفسير المصلحة والمفسدة: (المصلحة لا معنى لها إلا اللذة أو ما يكون وسيلة إليها، والمفسدة لا معنى لها إلا الألم أو ما يكون وسيلة إليه).

وقال الشاطبي: (أعني بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وقيام عيشه، ومثله ما تقضيه أوصافه الشهوانية والعقلية على الإطلاق حتى يكون منعما على الإطلاق).

والعمل الشرعي لا يؤمر به لذاته، بل يؤمر به لتحقيق المصالح الموجودة في طياته، والنهي ليس لذاته وإنما هو لدفع المفاسد الموجودة في العمل المنهي عنه.

فهذه الدنيا جعل الله خلقها والإمداد بها لأجل بذل النعم للعباد ولكنه ربط وجود النعيم المبثوث فيها والتنعم بها بشكر العباد لها أي بطاعتهم لخالقهم فيها. أي أن النعم والمباحات إنما وضعها الشارع للانتفاع بها على وفق المصالح على الإطلاق، فإذا خرج المكلف بها عن ذلك الحد لتكون ضررا عليه في الدنيا أو الدين؛ فكانت مذمومة لأنها صدت عن مراعاة وجوه الحقوق أو بعضها، فدخلت المفاسد بدل المصالح فالنعم في الوضع الأول خالصة فإذا جرت بحسب الشرع أي بحسب ما وضعت له أولا فذلك هو الشكر وإن جرت على غير ذلك فهو الكفران.

غير أن المصالح والمفاسد لا يعرفها إلا خالق العباد ولا سبيل إليها إلا بخبر الأنبياء الصادق. ذلك أن الشرع يتبين بالعقل، ولكن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء، والعقل إن فقد الشرع عجز عن معرفة الأمور كما يعجز البصر عن الرؤية عند فقد النور. فبالشرع يتبين الحق والصدق والخير والحسن والعدل في كل شيء.

وذلك لأن المصالح الدنيوية تشوبها مفاسد، والمفاسد تشوبها مصالح، وأغراض الأنام مختلفة فقد ينتفع بعض بما يتضرر به آخر، وأحوال الناس تختلف فتختلف تبعا لذلك المصالح والمفاسد، بل يختلف حال الشخص الواحد. فالمنافع والمضار نسبية فهي منافع أو مضار بالنسبة إلى شخص دون شخص أو وقت دون وقت أو حال دون حال علاوة على أنه قد تتزاحم المصالح والمفاسد وعندها ستتحتم عملية الموازنة بين المصالح المتعارضة أو المفاسد المتفاوتة أو بين المصالح والمفاسد ولابد حينئذ من معايير وأسس تعين لنا المصلحة الراجحة والمفسدة العظمى وغلبة الفساد أو الصلاح. وذلك بترجيح أعلى المصلحتين حكما ثم أعلاهما رتبة ثم أرجحهما نوعا ثم أعمهما مجالا، ثم أعلاهما قدرا، ثم أطولهما أمدا ثم آكدهما وأكثرهما تتحققا في الخارج، وكذلك الحال في المفاسد عند درئها، فندرأ أعلاهما حكما فرتبة فنوعا فأعمهما فأعلاهما قدرا فأطولهما أمدا فآكدهما فأكثرهما تحققا في الخارج.

وفي حال تعارض اللذات الروحية والجسدية فإن الشرع يقضي بالروحية لأنها أتم وأنفع؛ فالنظر لذة حسية وغض البصر لذة روحية، ومن هنا كان البحث عن اللذة الروحية بقدر رقي الإنسان بعكس الحسية.

وأما المصالح والمفاسد الأخروية فهي غيب لا سبيل للعقل إليها أصلا.

ومن حكمة شوب المصالح بالمفاسد ونسبيتها وتعارضها أحيانا واختلاف الأغراض والأحوال اختبار طاعة المكلف وانقياده لله إذ لو كانت المصالح محضة جلية لا غبار عليها والمفاسد محضة جلية لا غبار عليها لسارع المكلف إلى المصالح بطبعه ونفر من المفاسد بطبعه دون أن يكون هناك محل للابتلاء.

ومنها أن الأقدار والمصالح لو لم تكن بها بعض المنغصات والمكروهات والمشقات لما زهد الناس في دار الغرور ولما رغبوا في دار الآخرة الخالصة من المكدرات ذات النعيم المحض، ولما

عرفوا قدر النعم بالذوق ولغفلوا عن تجديد الشكر على النعم ولما عرف الإنسان قدر عجزه وذله علاوة على أنها تزيد اليقين وتوقف العبد على كرم ربه من خلال إجابة دعاء العبد.

والتكليف لا ينفك عن مشقة معتادة مقدور عليها، ولكن الشارع لم يقصد من التكليف بالأعمال تلك المشقة المعتادة المقدور عليها، بل قصد الشارع متوجه إلى ما يلزم عن ذلك التكليف من مصالح تعود على المكلفين في دنياهم وآخرتهم.

بل لا يجوز للمكلف أن يعذب نفسه ولا أن يلزمها المشاق، يقول الغز بن عبد السلام: (لا يصلح التقرب بالمشاق لأن القرب كلها تعظيم للرب سبحانه وتعالى وليس عين المشاق تعظيما ولا توقيرا).

ويقول المقري: (إن الأجر على قدر تفاوت جلب المصالح ودرء المفاسد؛ لأن الله عز وجل لم يطلب من العباد مشقتهم) ومن هنا رفع الشارع المشقة إن خرجت عن المعتاد بسبب الإكراه أو المرض أو النسيان أو السفر أو الخطأ أو نقص الطبيعة أو عموم البلوى أو الجهل.

ومن هنا كان عظم العصيان بحسب عظم المفسدة وعظم الطاعة بحسب عظم المصالح.

فالشرع لم يكتف بأن في المأمورات مصلحة وفي المنهيات مفسدة، بل ربط المصلحة بالطاعة لتكون الطاعة حاملا على القيام بالأفعال الصالحة، وربط المفسدة بالمعصية لتكون المعصية رادعة عن اقتراف الأفعال الطالحة.

يقول العز بن عبد السلام:

انقسمت الطاعات إلى الفاضل والأفضل؛ لانقسام مصالحها إلى الكامل والأكمل، وانقسمت المعاصي إلى الكبير والأكبر؛ لانقسام مفاسدها إلى الرذيل والأرذل.

إلا أن العبد إذا طلب هذه المصالح الراجحة وسعى في درء المفاسد الغالبة وتجنبها من باب الحرص على تحصيل نفع المصالح ولذاتها، ودفع آلام المفاسد وعذابها يكون عابدا لحظه لا غير.

فلا بد أن يكون الباعث على تحقيق المصالح وتجنب المفاسد التي جاء الشرع ببيانها وبيان وسائلها وطرقها هو شكر المنعم الذي أنعم بها من خلال تعظيمه وطاعته والخضوع له

والانقياد في الحركات والسكنات في الفكر والقول والعمل وبالكيفية التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ () مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ () إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ {لذاريات 56- 58}.

وقال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ {المؤمنون 71}.

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ {الجاثية 23}.

وقال تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ {المدثر 3}.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ {النساء 65}.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ {الأحزاب 22}.

وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ () وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ {طه 122-123}.

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ {النحل 97}.

وقال تعالي: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ { التوبة 55}.

وقال تعالي : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾ {الحج 78}.

الخاتمة

وصفوة القول أن الكفار بمختلف أصنافهم عبر التاريخ منعتهم من رؤية الحق الجلي والإيمان بالله ورسله أمراض عقلية أفسدت تفكيرهم ونكست أحكامهم العقلية وشلت قواهم الإدراكية فتشبثوا بجملة من الشبهات بينا تفاهتها واستحالتها من وجوه عدة.

وأما أدلة وجود الله فقد رأينا أنها لا حصر لها لأنها بعدد مخلوقاته.

وما من طريق من طرق اليقين التي أشرنا إليها إلا ويمكن أن تسلك لإثبات وجود الله فهو ثابت بالأحكام من الأوليات البديهيات إذ لا ينفك الأثر عن مؤثر ولا الفعل عن فاعل ولا المخلوق عن خالق.

وثابت بأحكام العقل بواسطة الحواس إذ ما من محسوس في هذا الوجود إلا وتشهد صفاته بوجود خالق حي عليم قدير مريد حكيم هو الله.

وثابت بأحكام العقل في المجربات إذ التلازم بين الأشياء كالنار والإحراق، والماء والري ليس حكما عقليا وبالتالي لابد أن من ورائه خالقا مريدا اختاره وأراده.

وخرق مثل هذه العادات المتكرر في المعجزات والكرامات ليس في طوق البشر، فلابد أن خارقها هو الخالق المالك المتصرف.

وثابت بالأحكام العقلية بواسطة الوجدان؛ ذلك أن الشعور بالخالق فطرة في كل إنسان يفصح عنه في حالات الشدة والكرب بنداء مسموع لخالقه.

وثابت بالخبر المتواتر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في الكتاب والسنة.

وأما صدق الأنبياء فتشهد به سيرتهم وتجليه معجزاتهم، وتحكم به حاجة الخلق لهم.

وأما أن غاية الشرع هي إسعاد الإنسان فقد نطق بذلك التاريخ وشهد به الواقع ونصت عليه معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الخالدة المتواترة (القرآن الكريم).

ومن هنا استجاب أصحاب العقول الصحيحة الحرة لداعي الحق والخير والسعادة، وسعدوا سعادة لا نظير لها هي مقدمة السعادة الأزلية التي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر على قلب بشر.

ورفض أصحاب العقول المريضة المملوكة للعادات والأعراف، أو المجتمعات أو الأفراد، أو الشهوات المضرة داعي الخير والحق والسعادة؛ فعاشوا في اضطراب وقلق وشقاء هو مقدمة لشقاء وعذاب أزلي لا يطاق، ولا صبر عليه، ولا محيد عنه. والله أعلم.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله على نعمة التوفيق على نعمة الوقوف على اليقينيات المثبتة لوجود الله وصدق أنبيائه وتوقف السعادة على الإيمان بالله وتعظيمه بالخضوع له وطاعته واتباع شرعه . وصلى الله على خاتم انبيائه صاحب المعجزة الخالدة (القرآن الكريم) وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ـــــــــــــــــــــــ انتهى بلفظه بتاريخ 6 نوفمبر 2019 الساعة 10:01 صباحا.

قائمة المصادر والمراجع

أهم الكتب التي رجعت إليها في قواطع البرهان:

- وجود الله للدكتور يوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة الطبعة 1، 2001م
- الله جل جلاله لسعيد حوى بيروت: 1979م.
- الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل
- قصة الإيمان لنديم الجسر
- الله لعباس محمود العقاد
- الوجود الحق للدكتور حسن هويدي
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد
- مع الله في السماء لأحمد زكي
- مفتاح السعادة للشيخ محمد الهاشمي
- رسالة من الشيخ سعيد النورسي للدكتور سعيد رمضان البوطي
- العقائد الإمام حسن البنا
- ضوابط المعرفة ومباحث الاستدلال لعبد الرحمن حسن حبنك الميداني/ 1975، دار القلم / الطبعة 1
- حاشية إبراهيم الباجوري على متن السلم المرونق في علم المنطق، الطبعة 1، دار السلامة، 2011م .
- سلم الضعاف المرتقين إلى درجات المتقين وشرحه للشيخ محنض باب ولد امين الديماني، الطبعة 1، 2012م. آفاق للطباعة والنشر
- توحيد الخالق للشيخ عبد الحميد الزنداني
- مقومات التكليف لمحمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع عمان، ط1، 2013.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	1
المبحث الأول: سبل اليقين التي لا يتطرق إليها الشك	2
أولا: الأَوَّليات	2
ثانيا: الحسيات	2
ثالثا: الأحكام العادية اليقينية	3
١ – التجريبيات	3
٢ – الاستقرائيات	3
٣ – الاستصحابيات	4
رابعا: الوجدانيات	4
خامسا: التواتريات	4
سادسا: أخبار الآحاد إذا انضمت إليها القرائن	5
المبحث الثاني: الشبهات التي منعت الكفار من رؤية الحق	6
أولا: شبهة أن الله لا يدرك بالحواس فهو غير موجود	6
الجواب عن هذه الشبهة	7

ثانيا: شبهة أن هذا الكون أزلي وليس مخلوقا أي ليس حادثا	7
الجواب عن هذه الشبهة	7
ثالثا: شبهة من خلق الله الذي خلق الخلق كله؟	11
الجواب عن شبهة هذا السؤال	11
أمثلة للتوضيح	12
المثال الأول	12
المثال الثاني	13
رابعا: شبهة أن هذا الكون بكل مكوناته الجامدة والحية خلق بالصدفة	14
الجواب عن هذه الشبهة	14
أمثلة توضيحية	14
المثال الأول	14
المثال الثاني	15
المثال الثالث	15
خامسا: شبهة أن خالق الأشياء كلها هو الطبيعة	17
الجواب عن الشبهة	17
مثال كاشف	18

المبحث الثالث: من أدلة وجود الله جل جلاله	23
أولا: شهادة أرباب العلوم التجريبية والفلسفة	23
ثانيا: شهادة تخصيص الإرادة أو اختيار أحد الممكنات أو ترجيح أحد الاحتمالات	24
ثالثا: شهادة ظاهرة الحياة بنشأتها وتنوعاتها وإنسانها وأخلاقه	25
رابعا: شهادة قانون السببية	26
خامسا: شهادة إحكام الصنعة والإبداع والجمال والعناية والتكامل بين أجزاء هذا الوجود والتناسق والترتيب فيه والحكمة	27
سادسا: شهادة الهداية	27
سابعا: شهادة الفطرة	28
ثامنا: شهادة العلة الغائية	29
تاسعا: شهادة الكون كله	29
عاشرا: شهادة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم	30
المبحث الرابع: أدلة صدق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم	31
أولا: أصل اللغة	31
ثانيا: معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم	31
ثالثا: البعد الوظيفي في الخلق	32

رابعا: معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالدة وهي القرآن	34
المبحث الخامس: غاية الشرع هي إسعاد الإنسان	36
الخاتمة	41
قائمة المصادر والمراجع	43
فهرست الموضوعات	44